ذكرى مولد الرسول ﷺ

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كلما أهلّ علينا شهر ربيع الأول، تذكر الناس مولد أعظم شخصية في الوجود، وهي شخصية محمد ﷺ[1]، الذي اصطفاه الله تعالى من خلقه، وصنعه على عينه، وأرسله رحمة للعالمين.

وللناس في هذا الشهر أحوال في الاحتفاء أو الاحتفال بمولد محمد ﷺ، واحتفاؤنا واحتفالنا واهتمامنا بمولده ﷺ، ليس كما يصنع الجهال والغافلون من الناس.

ليس بأن نقيم الزينات، أو نرفع الرايات، أو نوزع الحلوى، إنما احتفالنا به أن نتذكر هذا الرسول العظيم، أن نعيش في ذكراه، أي أن نعيش في ذكرى سيرته، أو ذكرى رسالته ﷺ.

إن هذا الرسول العظيم قد ترك لنا سيرة طاهرة عاطرة، وترك لنا رسالة عامة خالدة، صالحة مصلحة لكل زمان ومكان، والاحتفاء والاحتفال به، أن نتذكر هذه السيرة وتلك الرسالة، رسالة محمد ﷺ وسيرته، هي موضع أحاديثنا في هذه المدة من الزمن.

---

(١) المشهور أن ولادته ﷺ كانت يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٥٣ ق .هـ) (٥٧٠م) عام هجوم الأحباش على مكة، ويقول الشيخ محمد الغزالي حفظه الله: وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال، فالأحفال التي تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوي لا صلة له بالشريعة (فقه السيرة للغزالي) ص(٥٨) ط. دار القلم.

إن السيرة النبوية هي من أنصع الأدلة، على أن محمداً ﷺ مرسل من ربه، لا يمثل نفسه وإنما يمثل الإرادة العليا، إرادة الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٣ ـ ٥] .

من قرأ هذه السيرة، عرف بصدق ويقين، أن صاحبها لا يمكن أن يكون دعياً، لا يمكن أن يكون دجالاً، كما لا يمكن أن يكون ملكاً، أو طالب ملك، لا يمكن أن يكون رجل دنيا.

صاحب هذه السيرة صادق كل الصدق، يتمثل الصدق في هذه السيرة في كل جنباتها، ومن هنا كان علينا أن نقف وقفات في جوانب العظمة والخلود، والطهارة والإشراق في هذه السيرة النبوية المحمدية.

ومن حسن حظنا نحن المسلمين، أن هذه السيرة محفوظة... مروية... مسجلة... مخلدة.

سير الأنبياء معظمها ضاعت، وما بقي منها لا يكوّن حلقات متصلة، وليس له إسناد يصلنا بهم، ولكن سيرة محمد ﷺ بقيت محفوظة.

محفوظة في كتاب الله عز وجل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، محفوظة في أحاديث رسول الله ﷺ ، وفي سننه التي رواها الثقات في كتب الحديث الجامعة في الصحيحين، في الكتب الستة، في الجوامع والمصنفات والمسانيد، محفوظة في كتب السيرة التي عنيت بهذا الأمر خاصة، ككتب ابن إسحاق[1]، وابن هشام، وابن كثير[2]، وغيرهم، محفوظة في كتب

---

(١) توفي سنة (١٥١هـ)، ويعد كتابه: (السيرة النبوية) أقدم كتاب في السيرة، وقد هذبه من بعده ابن هشام (ت ٢١٣هـ)، وهو الذي انتهت إليه هذه السيرة، وغلب اسمه عليها، فعرفت به، وشاع ذكره بها.

(٢) وهي مأخوذة من كتابه الكبير في التاريخ (البداية والنهاية) وقد نشرت مستقلة بتحقيق د. مصطفى عبد الواحد.

الشمائل[1]، التي عنيت بأخلاقه، وشمائله، وهديه ﷺ محفوظة في كتب الدلائل[2]... ودلائل النبوة والآيات والمعجزات الحسية والمعنوية المتكاثرة الوفيرة، التي أظهرها الله على يديه ﷺ، كل هذا موجود عندنا نحن المسلمين.

والسيرة محفوظة من ألفها إلى يائها، من المولد إلى الوفاة، هذا مذكور في كتب وفي سجلات السيرة عندنا.

في السيرة: كيف ولد؟ ومتى ولد؟ ومن أرضعه؟ ومن احتضنه؟ وكيف نشأ؟ وماذا عمل في صباه؟ وماذا عمل في شبابه؟ وماذا صنع في كهولته قبل البعثة وبعد البعثة، قبل الهجرة وبعد الهجرة، كل هذا تحكيه لنا سيرة محمد ﷺ.

حلقات متصلة مروية بأسانيدها الصحاح، لا يوجد هذا لأي نبي من الأنبياء، ولا لأي عظيم من العظماء؛ لأن الأنبياء الذين بعثهم الله، بعثهم لمراحل موقوتة، لزمن محدود معلوم، ولأقاليم معينة، وأقوام مخصوصين.

أما محمد ﷺ فكانت رسالته عامة، خالدة خاتمة، «امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة»[3].

لهذا تكفل الله بحفظ سيرته وسنته ﷺ في مجموعهما، باعتبارهما البيان النظري، والشرح العملي للكتاب الكريم، وحفظ المبين يقتضي حفظ البيان، كما

---

(١) ومن أجمعها كتاب (شمائل الرسول) لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وقد حققه د. مصطفى عبد الواحد.

(٢) ككتاب (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة) لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ).

(٣) هذا الوصف للرسالة من مقال للإمام حسن البنا، ذكره الأستاذ القرضاوي في كتابه (الخصائص العامة للإسلام): خصيصة الشمول.

قال الإمام الشاطبي ـ رضي الله عنه ـ [1].

الله تكفل بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، والسنة والسيرة هما الشرح النظري، والتطبيق العملي لكتاب الله، لهذا حفظهما الله تبارك وتعالى.
عندنا نحن المسلمين سيرة رسولنا ﷺ، تحكي لنا كل أحواله: أقواله، وأعماله، وتقريراته، وأوصافه الخلقية، وصفاته الخلقية، وسيرته كلها.

ليس هناك دائرة حمراء في هذه السيرة، يقال هذه: لا تروى، أو هذا شيء خاص لا يذكر للناس، لا، حياته كلها ﷺ ملك للناس، أكله إذا أكل، شربه إذا شرب، لبسه إذا لبس، ركوبه الدابة إذا ركب، نومه إذا نام، استيقاظه إذا استيقظ، خروجه من بيته، كل هذا، حتى صلته بأهله، حتى الصلة الجنسية تروى للناس. لأن فيها تشريعاً، ولأن فيها اقتداء.

روت لنا السيرة كل حياته ﷺ في علاقته بربه، في علاقته بنفسه، في علاقته بزوجاته، في علاقته بأولاده، في علاقته بأحفاده، في علاقته بالناس، في علاقته بالأعداء، في سلمه إذا سالم، في حربه إذا حارب، في صلحه إذا صالح، كل هذا مروي في سيرة رسول الله ﷺ حتى حياته الخاصة، ترويها تسع نسوة[2]، لو نسيت واحدة ذكرتها الأخرى، ليكون كل شيء أمامنا واضحاً جلياً

---

(١) راجع: الدليل الثاني (السنة) في الجزء الرابع من كتاب (الموافقات في أصول الشريعة) لأبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، وهو كتاب لا ند له في بابه.

(٢) وهن اللاتي توفي عنهن ﷺ: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وهند أم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي بن أخطب، وأما أزواجه ﷺ اللاتي تزوجهن، ودخل بهن فهن إحدى عشرة امرأة، يضاف إلى التسع الآنفات: خديجة بنت خويلد، وهي أم المؤمنين الأولى أو الكبرى، وهي أم بناته ﷺ، وزينب بنت خزيمة، وهاتان توفيتا قبله عليه الصلاة والسلام، أما عن سبب تعدد أزواج النبي ﷺ، فأحيل القارىء الكريم إلى ما كتبه الأستاذ القرضاوي في (فتاوى

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] .

ما أحوجنا نحن المسلمين إلى أن نتدبر سيرة رسولنا ﷺ، أن نعيش مع هذه السيرة، أن نستجلي جوانب العظمة المحمدية، العظمة التي أشار إليها رب العزة في كتابه.

أشار إلى جانب من جوانبها، وهو الجانب الخلقي حينما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] ، الله زكى نبيه هذه التزكية، وليس بعدها تزكية.

ما أحوجنا إلى أن ندرس هذه السيرة دراسة المتأمل البصير، لنعرف كيف نقتدي برسول الله ﷺ، وكيف نأخذ الأسوة، ونقتبس النور من هذه السيرة الجامعة لحياتنا... لأنفسنا... لبيوتنا... وأسرنا... لأبنائنا وبناتنا... لمجتمعاتنا.. لحكامنا ومحكومينا.. نأخذ من هذه السيرة هدياً، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

إننا كثيراً ما نقف عند الأشياء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، طالما كنت أسمع وأنا صغير قصة المولد، يقرأونها في القرى والأرياف، ومعظم هذه القصة تدور على أشياء وخوارق ليس فيها هذا الأمر الذي نريده: جانب القدوة، جانب التأسي، جانب العظمة في سيرة محمد ﷺ، وفي رسالته.

طالما رأينا المؤذنين يؤذنون على المآذن والمنابر، يقولون: الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله[1]!! وما ثبت أنه أول خلق الله، الصلاة والسلام عليك

معاصرة: ١/ ٥٤٦ ـ ٥٥٠)، وللدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله رسالة نافعة بعنوان (تعدد الزوجات في الإسلام والحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ)، كما كتب الشيخ محمد علي الصابوني رسالة بعنوان (شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ).

(١) وهو كلام لم يصح به نقل، ولا يقره عقل، هذا ما أثبته الأستاذ القرضاوي في فتوى له نشرت ضمن (فتاوى معاصرة) الجزء الأول ص(١٧٨، ١٧٩).

يا مليح الوجه يا رسول الله!! أفي ملاحة الوجه هذه مجال للقدوة؟!

المسلمون ـ أو أقول: الكثيرون منهم ـ أخطأوا فهم شخصية رسول الله ﷺ، هذه الشخصية التي أنزل عليها الرسالة الخالدة العامة، اختاره الله سبحانه وتعالى ليختم النبوات والرسالات، ويعلن أنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده.

هذه الشخصية في حاجة إلى أن ندرسها، إلى أن نعرفها، وما أكثر الجوانب التي يمكن أن نقف عندها لنعرف عظمة الشخصية المحمدية.

خذوا الجانب الرباني من سيرته وحياته ﷺ، جانب التعبد لله تبارك وتعالى، إن من يقرأ في هذا الجانب، جانب العبادة... الصلاة... الصيام... الذكر... التسبيح... التهليل... التكبير... الدعاء... الاستغفار، يجد قلباً نابضاً بحب الله تبارك وتعالى، يجد لساناً رطباً بذكر الله تعالى، لا ينساه على كل حال، يذكر الله في كل أحواله، وعلى كل أحيانه.

انظروا إلى الرسول العابد الذي أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، فكان يعبده في ليله ونهاره، وصباحه ومسائه، في خلوته وجلوته، لا يفتر عن عبادة ربه.

كان يعلم أن الإنسان ما خلق إلا لعبادة الله، وأن عبادة الله هي المهمة الأولى لهذا المخلوق، الذي خلقه الله بيده، وسواه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفة في الأرض.

كان يعلم أن مهمته أن يعبد الله عبادة مبنية على معرفة به ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]. لهذا كان ﷺ أكثر الناس إقبالاً على الله.

شرع الله الصلوات الخمس، لتربط المسلم بربه كل يوم خمس مرات، لا

يوجد دين يربط الإنسان بمولاه هذا الربط الوثيق، ليكون دائماً على موعد مع ربه، كلما شغلته الشواغل، كلما غرق في لجة الحياة، كلما أنسته مطالبة الدنيا، كلما غرق مع التجارات، مع الدينار والدرهم، لكنه حين يسمع المنادي ينادي: الله أكبر الله أكبر... حي على الصلاة... حي على الفلاح، يترك البيع والشراء، ويترك دنياه ودنيا الناس، ويهرع إلى بيت الله، هكذا علّم محمد ﷺ الناس.

علمهم أن الحياة إنما تكون لله وبالله، وأن الإنسان يجب أن يتحرر لمولاه، هكذا علمه ربه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

ولهذا كان ﷺ المسلم الأول في كل أمر، المسلم الأول في عبادته إذا تعبد، في ذكره إذا ذكر، في دعائه إذا دعا، في خلقه إذا تخلق، في جهاده إذا جاهد.

كان المسلم الأول في عبادته لله، ولم تكن عبادته مجرد تسديد خانة، أو امتثالاً لأمر، بل كانت عبادته عبادة الحب والشوق إلى الله سبحانه وتعالى.

كان إذا قرب وقت الصلاة يتشوق إليها ويحن لها، ينتظر وقتها بفارغ الصبر، حتى إذا حان الوقت قال لمؤذنه: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»[1]، وما أعظم الفرق بين من يقول: أرحنا بها، ومن يقول: أرحنا منها.

إنها صلاة الحب، لا مجرد صلاة الأمر، إنه كان يجد فيها نفسه، يجد فيها غذاء قلبه، وانشراح صدره، وحياة روحه، وقرة عينه، وقد قال ﷺ: «... وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه، انظر الحديثين (٤٩٨٥، ٤٩٨٦) وأحمد في مسنده (٥/ ٣٦٤، ٣٧١).

(٢) جزء من حديث: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» رواه النسائي في عشرة النساء (٧/ ٦١)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، وإسناده حسن، ورواه الحاكم من طريق آخر وصححه، ووافقه الذهبي (٢/ ١٦٠).

كان يصلي الصلوات الخمس في ميقاتها... في جماعتها، بخشوعها، وركوعها، وسجودها، وإسباغ وضوئها، وما كان يكتفي بها، بل كان له صلوات.

كان يصلي من الليل، ما كانت متاعبه لتشغله عن وقوفه بين يدي ربه، إذا جن الليل، وأرخى ستوره، وغارت النجوم، وهدأت العيون، وأوى كل ذي فراش إلى فراشه، كان يقوم من الليل، ويصف قدميه مصلياً لله عز وجل، ويناجيه فيقول: «اللهم لك الحمد أنت نور السمٰوات والأرض، ولك الحمد أنت قيّام السمٰوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت، وما أسررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[1].

هذا هو النبي العظيم، ما شغلته متاعب الحياة، ومتاعب الدعوة، وما شغلته حياته الخاصة، تسع نسوة لهن مطالب، ولهن حاجات، ولهن تطلعات، ومسلمون لهم حاجات، ولهم مطالب، وعليه توجيههم وهدايتهم، وجبهات تقف له بالمرصاد، تريد أن تقتلع جذوره، وأن تهدم دعوته من أساسها: الجبهة الوثنية، والجبهة اليهودية، والجبهة النصرانية البيزنطية، والجبهة المجوسية المتربصة، والطابور الخامس من المنافقين الذين يعلنون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٩].

متاعب الحياة، ومتاعب الدعوة وهمومها، ما كانت لتشغله أن يقف بالليل مع ربه.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (شرح السنة للبغوي، بتحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ٤/٦٨).

يقف ويطيل الوقوف حتى تتورم قدماه... حتى تتفطر وتتشقق من طول القيام، حكى عنه حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه»[1].

إنها صلاة يشعر فيها بحلاوة العبادة، يجد حلاوتها في قلبه، فلا يمل ولا يضجر ولا يسأم، وأصحابه الذين كانوا أصغر منه سناً، وأقوى منه شباباً، ما كانوا يصبرون على هذه الصلاة الطويلة، حتى قال ابن مسعود، وهو من الصحابة: صليت مع النبي ﷺ ليلة، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء، قيل: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه[2]، لم يصبر على طول القيام.

«كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ـ من طول القيام ـ فقالت له زوجته عائشة ـ مشفقة عليه ـ : لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»[3]؟ أي: أن هذه المغفرة تجعلني أزداد في الإقبال على الله شكراً لنعمته، ووفاء بحقه، وقياماً بحبه، هكذا كان ﷺ.

كان متعبداً لله عز وجل عبادة الخشية، وعبادة المحبة، كان يصلي ويطيل السجود، ويطيل الركوع، ويطيل القيام، وله في سجوده وركوعه وما بين التكبيرات، أدعية وأذكار تملأ القلب بالخشية والخشوع، وتهز كيان النفس هزاً، ما أحوجنا أن نقرأها ونحفظها وندعو له.

---

(١) رواه مسلم (رياض الصالحين للنووي: باب فضل قيام الليل).

(٢) و(٣) متفق عليه (رياض الصالحين للنووي: باب فضل قيام الليل).

كان إذا ركع يقول: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»[1] ويقول: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وعصبي»[2].

وإذا قام من ركوعه يقول: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[3].

وكان إذا سجد قال: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[4].

وفيما بين السجدتين يقول: «رب اغفر لي وارحمني، واجبرني وارفعني، وارزقني واهدني»[5].

هكذا كانت صلاته ﷺ، صلاة الخشية... صلاة الحب.

أما صيامه، فكان يصوم رمضان، هذا الشهر الكريم، الذي كان يعتبره

---

(١) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، وأبو داود، والنسائي (الأذكار للنووي بتحقيق محيي الدين مستو، الحديث ١٠٨).

(٢) رواه مسلم عن علي رضي الله عنه (للأذكار للنووي، الحديث ١٠٧).

(٣) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأبو داود، والنسائي (الأذكار للنووي، الحديث ١١٥).

(٤) رواه مسلم عن علي رضي الله عنه، وأبو داود، والترمذي، والنسائي (الأذكار للنووي، الحديث ١٢٠).

(٥) رواه البيهقي في سننه عن ابن عباس في حديث مبيته عند خالته ميمونة رضي الله عنها، ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم (الأذكار للنووي، الحديث ١٢٩).

موسماً لطاعة الله، والإقبال عليه، فإذا جاء رمضان كان مع جبريل يدارسه القرآن، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

«وكان إذا دخل العشر ـ الأواخر ـ شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»[1] واعتكف في المسجد... اعتزل عزلة مؤقتة عن شواغل الحياة لعبادة الله عز وجل[2].

كان قبل رمضان يقوم بعض الليل وينام بعضه، ولكن في هذه العشر الأواخر يحيي الليل كله لعبادة الله، ويوقظ أهله... نساءه، ليشاركنه هذا المغنم... هذا الخير، ما كان يحب أن يكون وحده في طاعة الله، روت عنه أم سلمة: أنه استيقظ ليلة، فقال: **«سبحان الله! ما أنزل الليلة من الفتن؟ ماذا أنزل من الخزائن؟ من يوقظ صواحب الحجرات؟ ـ يعني نساءه ـ يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»**[3].

هكذا كان ﷺ يصوم ويقوم، ولم يكن يكتف بصيام رمضان، كما لم يكن يكتف بالصلوات الخمس.

كان يصوم الأيام البيض من كل شهر: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر[4]، وكان يصوم الاثنين والخميس، ولما سئل في ذلك قال:

---

(١) رواه الستة إلا الترمذي عن عائشة (فقه الصيام للقرضاوي ص١١٠) وقوله«: «شد مئزره» كناية عن النشاط التام في طاعة الله.

(٢) الإسلام لم يشرع الرهبانية، ولا التعبد بالعزلة الدائمة، ولكنه شرع الاعتكاف لفترات مؤقتة، لترتوي القلوب الظامئة إلى المزيد من التعبد والتجرد لله رب العالمين (فقه الصيام ص ١١١) بتصرف قليل.

(٣) رواه البخاري عن أم سلمة في كتاب التهجد من صحيحه (البخاري مع الفتح ١١٢٦) ط. دار الفكر المصورة عن السلفية.

(٤) عن جرير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وأيام البيض: صبيحة ثلاثة عشر، وأربعة عشر، وخمسة عشر» رواه النسائي بإسناد جيد، والبيهقي، قال الشراح: أي وأفضلها أيام البيض صبيحة الثلاث المذكورة،

«تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»[1].

كان يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وكان أحياناً يصوم ويواصل الصيام[2]، وينهى أصحابه عن الوصال رفقاً بهم، فيقولون له: إنك تواصل يا رسول الله، فيقول: «**وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[3].

لا تظنوا أنه يطعمه اللحم والأرز، أو الفاكهة، أو يسقيه الماء، لا، إنه غذاء آخر، وشراب من نوع آخر.

إنه غذاء القلب، وشراب الروح، إنه مشغول بمعرفة ربه وحبه وخشيته، لذلك شغله هذا عن الشراب والطعام والدنيا، كما قال القائل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء له ... ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أو عدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد

من في الناس يصل إلى هذه المرحلة؟!

إن في الحديث عن عبادته ﷺ... عن هذا الجانب الرباني من سيرته يطول، ولعل لنا عودة إليه لنجلي هذا الجانب ـ جانب الذكر والشكر وحسن العبادة ـ في حياة النبي العظيم ﷺ، فإنه من أنصع الأدلة على أنه رسول الله.

وسميت بيضاً: لطلوع القمر فيها طوال الليل، وتفضيل هذه الأيام لحكمة يعلمها الله، وقيل: ليتناسب نور القمر مع نور العبادة، ومثل هذا يعد من ملح العلم لا من صلبه وجواهره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٢٠، الحديث ٥٤٠).

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب، وروى النسائي نحوه في حديث عن أسامة بن زيد (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، الحديث ٥٤١).

(٢) أي يأتي الغروب فلا يفطر، ويستمر صائماً ليوم أو يومين.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة (سبل السلام للصنعاني: ٢/ ٣٠٧).

إن الدجالين لا يمكن أن يحملوا بين جنوبهم مثل هذا القلب الشاكر، ولا يمكن أن يكون لهم مثل هذا اللسان الذاكر، ولا يمكن أن يكون لهم مثل هذا البدن الصابر على طاعة الله وعبادته.

إن هذا القلب... قلب النبي المحب لربه، الخائف من عذابه، الراجي لرحمته، المقبل عليه بكل همته، إنه دليل من أسطع الأدلة على أنه رسول الله، على أنه يتكلم عن الله، لا يتكلم عن هواه، ولا يصدر من عند نفسه ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

صلى الله عليك وسلم يا رسول الله، وجعلنا الله من المهتدين بهديك، المقتدين بسنتك: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ورد أنه في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يدعو بها عبد مسلم بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ

أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

عباد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

اللهم صل وسلم وبارك على نبيك، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأقم الصلاة.

* * *

*

obeikandl.com